الطبيعة الصامتة في شعر الخالديَيْن مقاربة في الصورة اللّونية

The silent nature in the poetry of the Khalidians: An approach in the color image

رشا علي أحمد الطائي
د. منتصر عبدالقادر الغضنفري
أستاذ
كلية التربية للعلوم الانسانية– قسم اللغة العربية

Rasha Ali Ahmed Al-Taie
Dr. Montaser Abdel Qader Al-Ghazanfari
professor
College of Education for Humanities - Department of Arabic Language

rashaaliahmed1985@gmail.com
Dr.mutasir2004@gmail.com

تاريخ الاستلام ٢٠٢٢/١٢/١١ تاريخ القبول ٢٠٢٣/١/١٢

الكلمات المفتاحية: الطبيعة الصامتة، الخالديين، الصورة اللّونية

Keywords: Silent nature, Khalidis, color image

الملخص

عالج هذا البحث جمالية تشكيل الصورة اللونية من خلال الطبيعة الصامتة، في شعر الخالديين، ارتأت الباحثة أن ترصد الصورة اللونية في هذه الدراسة للشاعرين لتعرف مدى تأثر الشاعرين بالألوان عن طريق دراسة الدلالات اللونية من خلال الطبيعة الصامتة.

وانصب اهتمام البحث على براعة الشاعرين في استخدام الألوان ودلالاتها والتركيز على دور الحواس في بناء الصورة، لاستثمارها في تشكيلها، من خلال توظيف تقنيات عديدة منها التشكيل التشبيهي، والتشكيل الاستعاري اللذان تشكّلا عبر محاولة الشاعرين التحليق في آفاق المجاز البعيدة.

وتأتي أهمية هذا البحث؛ لأنه يبوح بما يدور في نفس الشاعرين وافكارهما؛ إذ تمثل الصورة اللونية جزء من الصورة البصرية؛ ذلك أن اللون مدرك حسيّ بصري .وقد لمس البحث أن الصور التي وشحت قصائدهما كانت مرسومة غالباً بالألوان المستعارة وبالألوان المستوحاة من دلالة المفردات والصيغ الانزياحية التي تعتمد المجاز وأضربه كالاستعارة والتشبيه وما إليها، وقد لمس البحث أيضاً تعدد الدلالات الألوان في شعريهما وتنوعها حسب ورودها في السياق.

Abstract

This research dealt with the aesthetic of the formation of the color image through the silent nature, in the poetry of the Khalidians, the researcher decided to monitor the color image in this study of the poets to know the extent to which the poets are affected by colors by studying the color connotations through the silent nature.

The research focused on the ingenuity of the two poets in the use of colors and their connotations and focus on the role of the senses in building the image, to invest it in its formation, by employing many techniques, including metaphorical formation, and allegorical formation, which were formed through the poets' attempt to fly in the distant horizons of metaphor.

The importance of this research comes because it reveals what is going on in the same poets and their ideas, as the color image represents part of the visual image, because the color is perceived visual sensory. The research has touched that the images that scarce their poems were often painted in borrowed colors and colors inspired by the significance of vocabulary and displacement formulas that adopt metaphor and multiply it as metaphor, analogy, etc, and the research has also touched the multiplicity of color connotations in their poetry and their diversity according to their occurrence in the context.

الطبيعة الصامتة في شعر الخالديَيْن مقاربة في الصورة اللّونية

يقصد بالطبيعة الصامتة: "مظاهر وجودها المتجسد في سهولها وبحارها وبواديها وحدائقها وحقولها وما إلى ذلك"(١)، وتتمثل فيما تحتوي عليه الطبيعة من رياض وزهور وانهار وأبنية وقصور. ويعد اللون عنصراً مهماً في تشكيل هيأتها، بما يؤديه من دور تصويري فائق، يرتفع بالنص إلى مستوى التفاعل بين الشاعر والمتلقي من ناحية التأثر والتأثير(٢).

وقد تمثلت مظاهر الطبيعة الصامتة في العصر العباسي بعامة _ومنه شعر الخالديين_ في(٣):

١- الفلاة والجبال والكثبان والسراب.

٢- الليل والنجوم.

٣- الرياح والسحاب والمطر.

٤- الشجر والنبات.

ومثّلت الطبيعة –عموماً– عند الخالديين مصدراً للإلهام؛ فقد شكلا منها لوحات شعرية رائعة، بدا عليها صدق الأداء، وحرارة الإحساس والعاطفة الجياشة. وكيف لا يكونان كذلك وقد عاشا بين أحضانها، ينتشيان بمفاتنها ويدققان في محاسنها ، فجاء شعرهما على شكل قصائد طويلة تتألف من عناصر متفردة للطبيعة، وأُخرى على شكل مقطوعات قصيرة وضحت ظواهر الطبيعة بعينها(٤).

وتمثلت مظاهر الطبيعة الصامتة عند الخالديين في: وصف الفصول والازهار والنسيم والليل والكواكب والبرق والرعد والسحاب.

قال أبو عثمان في وصف الصباح(٥): (من المنسرح)

والصّبحُ قدْ جـــرّتْ صَوارِمــهُ والّليلُ قد هـَـمّ مِنـــــهُ بِالهَرَبِ

تتجلى في هذا البيت ثنائية الليل والنهار، وهي ثنائية ضدية فيها إحالة إلى البعد اللوني، المتمثل باللونين الأبيض والأسود، انتصر فيها الأبيض على الأسود؛ إذ اقترن الصبح بالبياض، مشبهاً إياه بجيش محمل بالصوارم، فحذف المشبه به وأبقى لازمة من لوازمه، وهي

---

(١) الطبيعة في الشعر الاندلسي، جودت الركابي: ٧.

(٢) ينظر: اللون ودلالته الموضوعية والفنية في الشعر الاندلسي، علي سليمان جاسم: ٨٥.

(٣) ينظر: الطبيعة في العصر العباسي الأول ، أنور عليان أبو سويلم: ٦٧، ٥٥، ٩٨، ٨٢.

(٤) ينظر: حياة الخالديين وشعرهما، ازدهار عبد الرحمن، رسالة ماجستير، إشراف الأستاذ الـدكتور: عبـدالله فضـل بريمـة، جامعـة أم درمـان الإسـلامية، كليـة اللغـة العربيـة، السودان،٢٠٠١: ٢١.

(٥) ديوان الخالديين، جمع وتحقيق د. سامي الدهان: ١١١.

الصوارم على سبيل الاستعارة ، ليشخص منه كائناً مقاتلاً، هزم الليل الذي استعار له صفة الهرب، ليقول بأن للصباح سيوفاً يواجه بها[١]، فعندما يأتي الليل ويبصر سيوفه ، يهم منه بالهرب خوفاً من ضوئه الفتاك. ولعل في قول الشاعر هذا صورة قد وقرت في ذهنه تتضمن الاشراق والوضوح والنفاذ تظهر من خلالها فاعلية اللون الأبيض غير المباشر، دلالة على القدوم. ثم يرصد الشاعر لون الليل (الأسود)، فصوره كائناً منهزماً أمام بياض الصبح، ولعل السياق يوحي بأن السواد هنا قد أصاب الشاعر بالقلق وربما الضيق ، في دلالة على طبيعة إحساسه بوقع الليل[٢]. وبهذا تجري الأنساق اللغوية على السجية في صورٍ استعارية تصف الطبيعة الصامتة، التي تتخللها الخواطر الإنسانية، مشهداً حياً ناطقاً فترسلها حللاً فنية، تشكل خطاباً شعرياً يندي عواطفاً ويتعطر إحساساً في بناء متكامل تشيده الطبيعة. وهكذا تتشكل الصورة لدى الشاعر فيمثلها أصدق تمثيل ويركب أجزاءها أجمل تركيب، ويشدها في لين حتى تصبح حياة متحركة وناطقة[٣]. لينجح الشاعر في تعبيره عبر هذه الثنائية الصباح (البياض)/ الليل (السواد) عن تفاؤله وشعوره بالأمان بعد أن هزم بياض الصبح سواد الليل.

قال أبو عثمان في وصف الليل[٤]: (من البسيط)

يا حُسْنَنَا نَحنُ في لهوٍ وليلـــتُنا بِزهرِ أنْجُمها ترَمِي العفَـــاريتُ

وَقَد تَضَايقَ في السّكرِ العناقُ بِنا كما تَضَايق في النّظْم اليــواقِيتُ

يخلو الشاعر إلى الليل ويعبث به، واصفاً ما وقع منه خلاله في صورةٍ حركية بصرية ، تصف ما جرى بدقة ، فالكل يعمل: لهو دائم، ونجوم ترمي العفاريت ، وسكر وعناق[٥]. وتمتاز الصورة البصرية عن باقي الصورة الحسية بأنها تمتلك طاقة تعبيرية عالية،

---

(١) ينظر: شعر الخالديين دراسة فنية، شلاش القداح: ٧٢.

(٢) ينظر: التوظيف الفني للون، حمد محمد فتحي الجبوري: ١٣٦.

* ولعل أبا بكر تأثر بقول ابن خفاجة بقوله : **والدجى قد لوى لواء الثريا وانتضت راحة الصباح حسامه** (ديوان ابن خفاجة، تحقيق: عبدالله سندة: ٢٣١)

(٣) ينظر: الطبيعة في الشعر المغربي القديم، عبد السميع موفق، رسالة ماجستير، اشراف الدكتور إحسان الديك، اشراف الدكتور السعيد الراوي، جامعة الحاج خضر، كلية الآداب والعلوم الانسانية، الجزائر، ٢٠٠٩: ١٨٥.

(٤) ديوان الخالديين: ١١٣.

(٥) ينظر: قدماء ومعاصرون ، سامي الدهان: ٤٣ .

وتعد العامل الأساس في كسر جمود التكوين الشكلي، لسكون الحركة[١]؛ فالصورة "صياغة بصرية لقالب الحركة "[٢]. ومع أن الدلالة اللونية المتمثلة باللون الأسود ترتبط _غالباً_ عند العرب هذا اللون بكل ما يخيف؛ كونه مرتبطاً بالجن والشياطين والعفاريت[٣] ، وهذا ما وجدناه في النص فقد جاء ذكر العفاريت في هذا النص ولكن بدلالة مغايرة ؛إذ انتفت صفة الخوف فهي ليلة لهو وسكر صاخبة، حتى _في شدة اللهو_ أن النجوم ترمي العفاريت بالزهر، فشبّه اللاهين مع الشاعر بالعفاريت ، والعفريت: من الجن، وهو: العارم الخبيث ، ويستعار ذلك للإنسان استعارة الشيطان له[٤]. والزهر هو النَوَر الذي ناسب النجم بالدلالة البيضاء ، فكأن ضرب النجوم لهم بهذا النور فيه نوع من العقاب لهم ، عسى أن يبعث فيهم نوعاً من السكينة وقلة الحركة[٥].

ويزيد الشاعر في وصف قوة فعل الحركة في هذه الليلة الصاخبة عن طريق التشبيه، فهو يصفها بأنها مزدحمة بالناس كازدحام الخرز في قلادة الياقوت ، وبما أن الياقوت يحيل إلى اللون الأحمر، وهو من الألوان الساخنة، فقد ناسب الوصف الموصوف فبوصفه لوناً قوياً حركياً فقد ناسب حركة هؤلاء السكارى في هذا المجلس. وبما أنه مرتبط بالخطيئة[٦] فقد ناسب السكر والعبث .

وقال أبو بكر في وصف الثريا[٧]: (من المنسرح)

كأن أنجُـــــمَ الثُريا لِمـنْ يَرمُقها والظّلامُ مُطـــــبقُ

مالُ بخيلٍ يظلُ يجمـــــعهُ منْ كلِ وجهٍ ليسَ يَفــتَرِقُ

تتشكل الصورة اللونية التي رسمها الشاعر من طبيعة بروز نجم الثريا في ظلام الليل الدامس، فالثريا بما تبثه من ضياء واشراق تحيل إلى اللون الأبيض. أما الظلام الذي يُحيط بها فيحيل إلى اللون الأسود، مشبهاً الثريا في حالها هذا ، وهي منتشرة متناثرة، بمال البخيل المنبث في الآفاق، يركض وراءه ليجمعه، في دلالة على الرغبة في زيادة رقعة الظلام كمية ومعنى؛ فالجامع بين الصورتين (الثريا والبخيل) هو الإحالة وعدم الوصول؛ فهو يتأمل

---

(١) ينظر: الحركة ودلالاتها الفكرية والجمالية في العرض المسرحي، عبد الكريم عبود، رسالة ماجستير، كلية الفنون الجميلة، بغداد، ١٩٩١: ٧٤.

(٢) الشعر والرسم، فرانكلين روجر: ٨٢ .

(٣) ينظر: اللون في الشعر العربي قبل الإسلام، إبراهيم محمد علي: ١٧٦.

(٤) ينظر: غريب القرآن، ابن قتيبة: ٣٢٤ .

(٥) ينظر: اللون في الشعر العربي قبل الإسلام: ١٣٠ .

(٦) ينظر: طاقة الألوان، مها محمد سعيد: ٢٨ .

(٧) ديوان الخالديين: ٧٢.

صورة الثريا مجتمعة والسماء مظلمة باجتماع النقود عند البخيل يضم بعضها إلى بعض غير مبالٍ من أين يجمعها .

قال أبو بكر في وصف الصيف[١]: (من الخفيف)

رُبَّ ليلٍ فَضَحتهُ بضياءٍ راجٍ حتى تركتهُ كالنّهارِ
ذي سماءٍ كخزامٍ ونُجومٍ مُشْرقاتٍ كَنرجسٍ وبَهارِ
وهِلالٌ يلوحُ في سَاعِدِ الغربِ كَدملوجِ فِضةٍ أو سِوارِ

يظهر اللون الأبيض جلياً في هذه المقطوعة ، على الرغم من أنها في وصف الليل؛ فإذا ما كان الليل عادةً معتماً فإن ليل الصيف ليس كذلك، ليصفه الشاعر بأنه مفضوح بالضياء حتى أحاله إلى نهار، مشبهاً السماء بنبات الخزام الأزرق، الذي تظهر من خلالها النجوم، التي شبهها بدورها بالنرجس في إحالة إلى اللون الأبيض كذلك، وهو ما تحقق مع البهار أيضاً؛ فالبهار: "البياض في لب الفرس "[٢]. ويشبه الشاعر الهلال بالفضة التي تحيلنا، فضلاً عمّا مرّ، إلى اللون الأبيض، فقد بدا الهلال بدا كسوار فضة يلوح في ساعة الغروب؛ لاستدارته من ناحية الشكل، وللزيادة في الضياء والاشراق من ناحية اللون. ولعلنا نستطيع القول إن كل هذه الايحاءات اللونية إلى اللون الأبيض المتمثلة بالنرجس والبهار والفضة في سماء كالخزام قد ازاحت عتمة الليل الأسود، وجعلته مشرقاً مضيئاً حتى بدا وكأنه نهار.

قال أبو بكر في وصف الرياض[٣]: (من الوافر)

بِقاعٌ أشرقتْ فكأنّ فيها وَميضَ البرقِ مِن فَرطِ البريقِ
وأوديةٍ كأنّ الزّهَر فيها يَواقيتَ تُفصّلُ بالعَقيقِ
لها حَصْباءُ كالكافورِ بُثتْ على تُربٍ خُلقنَ من الخلُوقِ

تزدحم الأوصاف في جمال فصل الربيع في هذه المقطوعة ؛ فالأرض ببقاعها قد أشرقت وأضاءت. وقد نسب الشاعر هذه الإضاءة إلى وميض البرق ، الذي قد جعلها تبدو مضيئة وأكثر لمعاناً وتوهجاً وإشعاعاً. فكأن هذه الإضاءة التي تجلت في النص قد أكدها البرق مرةً عندما لمع في السماء فأضاءها، وأخرى عندما أعقبه هطول المطر فروى الأرض فازداد خيرها الذي عم الكون فبدا وكأنه مضيء.

(١) ديوان الخالديين: ٥٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور: ٣٧٠.
(٣) ديوان الخالديين: ٥٧.

وتبرز الوديان بوصفها مظهراً آخرا من مظاهر الطبيعة الصامتة؛ إذ تجتمع فيها المياه ، فينبت فيها الزهر، ليشبه الشاعر هذا الزهر الذي نبت فيها بالياقوت قد فُصّل بالعقيق. ولما كان الياقوت حجراً كريماً وأحسن أنواعه ما كان أحمر اللون(١)، والعقيق: حجر كريم ذو ألوان متعددة وعادةً ما يكون لونه أحمر(٢)، فقد أراد الشاعر من تشبيه الزهر بالأحجار الكريمة هذه إبراز اللون الأحمر، كونه يعبر عن الجمال إذ يستميل جذب أنظار الآخرين فهو ملفت للنظر(٣)، فضلاً عن ألقه وجماله وصعوبة الحصول على امثاله، مما أعطى النص طاقة فنية /جمالية عالية .

وتتجلى الروائح العطرية في النص، عندما يشبه الشاعر الحصباء بالكافور، فالحصباء: "الحصى والحجارة... وفي حديث الكوثر: فأخرج من حصبائه ، فإذا ياقوت أحمر، أي حصاه الذي في قعره "(٤)، من حيث ما أصابه من روائح الربيع العبقة ، بل إن التراب نفسه قد خلق من الخلوق، والخلوق :"طيب معروف يتخذ من الزعفران"(٥) فاجتمعت رائحتا الكافور والخلوق، لتبعثا في النص عبقاً معنوياً/ نفسياً يحكي جمال فصل الربيع.

إن امتزاج الألوان في هذه الابيات، ألقى بظلاله على المشهد كما في الطبيعة ، فكونت مزيجاً لونياً ساحراً؛ إذ كانت مشكلة من البرق/ الأبيض ، الياقوت، العقيق، الحصباء/ الأحمر، التراب/ الأصفر. لقد تعاضدت هذه الألوان في عملية الابداع الفني للشاعر، فأصبحت صوراً لونية نابضة بالحياة، زادها ألقاً وتأثيراً ما أضفاه عليها من إيحاءاتٍ عطرية عبر الكافور والخلوق.

وقال أبو عثمان في وصف الربيع(٦) : (من البسيط)

يا حُسنَ "دير سـعدٍ" إذا حلّتَ بهِ والأرضُ والروضُ في وشيٍ ودِيباجِ
فما ترى غُصـناً إلا وزهرتـهُ تَجلوهُ مِنها في جُبةٍ مِـنـها ودَوّاجِ
وللحَمائمِ ألحـانٌ تُذكّرُنَـا أحبَابَنا بيـنَ أرمـالٍ وأهزاجِ
وللنّسيم على الغدرانِ رفـرفـةٌ يزورُها فتلـقاهُ بأمـواجِ

(١) ينظر: الأحجار الكريمة ودلالتها في الشعر الفارسي، ثائر فضل عيسى، مجلة آداب ذي قار، العدد ٣٢، ٢٠١١: ٣٢.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٢.
(٣) ينظر: طاقة الألوان: ٢٨.
(٤) لسان العرب: ٨٣٩.
(٥) المصدر نفسه: ١٩٧/٤.
(٦) ديوان الخالديين: ١١٥.

لا يخفى ما للربيع _بجمال ألوانه ، وتنوعها واخضرار أشجاره وطعم ثماره المختلفة _ من أثر إيجابي في نفوس الناس جميعاً، كلاٍ بحسب درجة حساسيته أو شعوره بما حوله من جمال الطبيعة الساحرة، ولاسيما في هذا الفصل؛ فالطبيعة: "هي عود الثقاب الذي يشعل الروح الشاعرة، ويدفع الينبوع الكائن في أعماق النفس إلى التفجر والتدفق والانطلاق، بقدر ائتلاف الشعر مع الطبيعة ، وبقدر اتصاله الروحي بموجودات هذا العالم ، يكون حظه من التعرف على أسرارها، ويكون نصيبه من المتعة الروحية"[١] والشاعر في هذه الابيات يصف فصل الربيع بأجمل الأوصاف في (دير سعد) إذ حلّ به ، فهو يكسو الأرض والرياض جمالاً ،فقد أحالت مفردة الروض إلى اللون الأخضر، والأخضر هو رمز الربيع وهو: "من الألوان الباردة ذات الطول الموجي القصير"[٢] وله "خواصه المسكنة للجهاز العصبي ، فهو لون الربيع والتجدد والامل ، ويرتبط وخصوصاً الناظر منه بالنماء ، ويرمز للحياة الوفيرة والخير"[٣] وقد شبه الشاعر الربيع _بما يعنيه من اخضرار_ بالكساء الذي يكسو الأرض حريراً مزركشاً، أي كأنه ثوب من حرير مزركش تتزين به الرياض.

كما أنّه _أي الربيع_ لم يترك غصناً إلا وقد ألبس زهرته ذلك الثوب الجميل. وإذا ما أحالت مفردة (زهرته) إلى اللون الأبيض، فالزهر هو: "الأبيض المستنير "[٤] فلعل الشاعر أراد به رمز الصفاء والنقاء، تأكيداً لما في الربيع من معاني الجمال والراحة والطمأنينة . كما أن اللون الأبيض يمثل البداية[٥] فهو إيذان لبداية فصل الربيع .

ويتداخل مع لوحة الطبيعة الساكنة ، مظهرٌ من مظاهر الطبيعة الحية؛ لتعزيز جوانب الصورة، ألا وهو الحمائم، التي اقترن ذكرها في الشعر العربي بالبكاء؛ فهي تثير في غنائها أشجان الشعراء ولوعاتهم ، وتهيج فيهم أحاسيس الشوق والحنين ، حتى كاد الحمام يكون رمزاً للحب والحنين والشجن والاشواق[٦]، فهذه الحمائم تغني الالحان فتذكر بالأحباب الذين رحلوا . ليشبه النسيم بالطائر الذي يرفرف حين يزور الغدران، فتلقاه بأمواج قوية، طرباً

(١) الأدب وقيم الحياة المعاصرة، محمد زكي عشماوي: ٤٠٥.

(٢) الإضاءة المسرحية، شكري عبد الوهاب: ٨١.

(٣) اللون في الشعر العربي قبل الإسلام: ٢١٢.

(٤) لسان العرب: ٩٩/٦.

(٥) ينظر: اللغة واللون، أحمد مختار عمر: ١٨٥.

(٦) ينظر: الحمام في الشعر العربي، تحسين محمد الصلاح، المجلة الثقافية، الجامعة الاردنية، العدد ٤٢، ١٩٩٧: ٢٦٦.

بقدومه؛ فالطبيعة يرحب بعضها ببعض، وهكذا يجمع الشاعر بين كل مظاهر الربيع ، ليشكل منها صوراً متناغمة الأبعاد شكلاً ومضموناً.

إن الشاعر بامتلاكه الخيال المحلق والوجدان المرهف، يمتلك القدرة التصويرية العالية؛ لأنه يقتنص المرئيات والمشاهد عن طريق الخيال، ويؤلف بينها علاقات، يراها هو وحده على وفق نظرته إلى الحياة، ويوحد بين هذه الأجزاء توحيداً عاطفياً دالاً على تجربته الكلية(١).

قال أبو بكر في وصف النجوم والكواكب(٢) : (من الكامل)

أرعى النجومُ وكـــأنها في أفُقِها زَهر الأقاحي في رياضٍ بنفســجِ
والمُشتري وَسَطَ السّـــماءِ تخالهُ وسَناهُ مِثلَ الزئبقِ المتدحـــــرجِ
مِسمارِ تبرٍ أصـــــــفرّ ركّبــتهُ في فَصّ خاتمِ فضّةٍ فيـــــروزجِ
وتمايُل الجوزَاءِ يَحْكي في الدّجى مَيلانَ شاربِ قهوةٍ لم تـُــــمزجِ

ترعرع الشاعر العربي وسط أرضه ، فكانت السماء سقفه والنجوم مرشده والكواكب دليله، لذلك حضرت بقوة في قصائده ، فالشعر ديوان العرب وعنوان فخرهم ومرآة مجتمعهم. وقد وظف الشعراء حركتها وسكونها وألوانها ومنازلها وقربها وظهورها وغير ذلك من الدلالات، في التعبير عن خوالجهم وأحوالهم النفسية وتصوير المعاني، بأسلوب بليغ ومنيع(٣).

ويبقى اللون الأزرق _لون السماء_ الأقل وروداً في شعر الخالديين خاصةً، وفي أشعار العرب عامةً؛ وذلك لارتباطه بلون عيون الأعداء أو بأشياء خافية على العين كالغول(٤). فالبنفسج والفيروزج يرمزان إلى السماء الزرقاء في هذه اللوحة، التي تزينت بالنجوم المتلألئة، فبدت كروض بنفسجي اللون، تناثرت فوقه أزهار بيضاء اللون، فقد شبه النجوم بأزهار الأقحوان الأبيض، التي تناثرت في أفق السماء التي بدت وكأنها التقت بالأرض.

ويصور الشاعر الكواكب والنجوم البيض في تلك السماء الزرقاء وقد توسطها المشتري بلونه الذهبي فيزيدها جمالاً، من حيث شبهه بلمعانه بمسمار التبر الذهبي في خاتم فضة من الفيروزج الأزرق المرصع بالذهب، واصفاً إياه _فضلاً عن ذلك_ بالمتدحرج في دلالة على انتشار ضيائه في أرجاء السماء .إن استعمال الشاعر للون الأزرق المتمثل في

---

(١) ينظر: تشكيل الصورة في النص الشعري العربي المعاصر، حنان بومالي: ١٥٥.

(٢) ديوان الخالديين: ٣٣-٣٤.

(٣) ينظر شعر الفلك وإلهام السماء والكواكب والابراج والنجوم في القصائد العربية، سناء القويطي: Aljazeera.net.nes

(٤) ينظر: اللون ودلالته في شعر البحتري، نصرة محمد شحادة: ٥٦.

الفيروزج يشير إلى صفاء السماء عندما يكون الجو صحواً؛ وبذلك تبرز الألوان الأخرى في تشكيل متناغم يكسب النص هذه القيمة الجمالية.

إن هذا التمازج اللوني يضفي على المشهد مزيداً من الحيوية والحركة ، فيشع بدلالة الفرح والسرور والتفاؤل، بما يسهم في تشكيل صورة فنية رائعة، مصدرها الأساس الألوان ولاسيما من خلال ارتباطها بالوصف(١). لتظهر الجوزاء، من بعد، طربة راقصة، وكأنها إنسان قد بلغ حد السكر. وهكذا كان التوظيف غير المباشر للون الأزرق حضوراً فاعلاً يرتبط بدلالة الوصول إلى الحياة السعيدة "فليست دالة اللون عملية هامشية بعيدة عن الوعي والادراك في كثير من الأحيان، وإنما هي عملية واعية ذات طابع قصيدي ينتقي الشاعر وراءها تقييم ورؤية موفقة من العالم الذي يتحدث عنه تقديماً فنياً ذا منحى جمالي من الدرجة الأولى"(٢).

إن الأبيات كلها تؤكد معنى الانطلاق والفرح؛ فقد حاكت لوحة الألوان هذه جمال الطبيعة. وإذا ما كان الشاعر قد بالغ في استعمال الألوان ، فإنه قد وظفها بشكل متجانس، دلّ على إبداع الخالق _سبحانه_ في خلق هذا الكون .

قال أبو بكر في وصف زهر البنفسج(٣) : (من المنسرح)

على بساطٍ من البنفســـــجِ قدْ ألقـــــى من الوردِ فوقهُ مطرحْ

يتأمل الشاعر لحظات الفرح والسرور التي يقضيها في مجلس الشراب، جامعاً فيها بين الطبيعة والخمرة ؛ فجمال هذه اللحظات لا يتم إلا بوجود البنفسج وانتشار عبيره العبق في مجلسه هذا، الذي أقامه على بساط من البنفسج، فهو يشبه زهر البنفسج بالبساط الذي نقشت عليه ورود شتى. ولعل ما توحي به كلمة بساط من سُمك لتشير إلى كثرة هذا البنفسج وتداخله بما يمنح إحساساً بالراحة والأمان.

ومن ثمة يتبين أن توظيف الشاعر للون البنفسجي في هذه المقطوعة قد أغنى الصورة الشعرية بمقومات الجمال والراحة ، كما أن توظيف اللون لم يكن توظيفاً خالياً من أي اعتبارات ؛ وإنما هي عملية مؤسسة على أن اختيار اللون يدخل في اطار الرؤية والاحساس الذي انطلق منه الشاعر(٤). وهو هنا إحساسه بالفرح والسعادة .

---

(١) ينظر: التوظيف الفني للون: ٨٩.

(٢) جماليات اللون في شعر زهير بن أبي سلمى، موسى ربابعة، مجلة جرش للبحوث والدراسات، الاردن، المجلد الثاني، العدد (٢)، ١٩٩٨.

(٣) ديوان الخالديين: ٤١.

(٤) ينظر: الصورة اللونية، سالم الجديدي: ١٢٤.

قال أبو بكر في وصف الاقحوان[١]: (من الوافر)

تَخالُ بــهِ ثُغور باسِـــــماتٍ إذا، افتَر نُـــــورُ الأقحــوانِ

يصف الخالدي في المقطوعة التي ورد فيها هذا البيت ، دار سيف الدولة، وقد شبه في هذا البيت زهور الاقحوان، التي وصفها بالباسمات ، بالأسنان البيض، فقلب أصل التشبيه؛ فخرج عن المألوف عند الشعراء[٢]. وهكذا فقد أحال الشاعر عبر لفظة الاقحوان إلى اللون الأبيض، مؤكداً ذلك بلفظة (ثغور). ولما كان الاقحوان: "من نبات الربيع مفرض الورق، دقيق العيدان له نور أبيض "[٣] فإن الشاعر قد نجح في أن يمزج في تشكيل صورته بين مظهرين من مظاهر الطبيعة : الطبيعة الصامتة متمثلة بالزهور، والطبيعة الصناعية متمثلة بالقصور.

قال أبو بكر في وصف الازهار[٤]: (من الوافر)

وصِبغِ شقائقِ النعمانِ تـحكي يواقيتاً نُظمنّ على اقتـــــرانِ
وأحياناً تُشبـــــهُها خـــدوداً كَستْها الرّاحُ ثوبَ الأرجـــوانِ
على أنا سننـــــــعتُّ ذا وهذا بِنسبتِـــــهِنّ ما يتـــــغيّرانِ
هُما في صحةٍ وَبدِيـــــعِ لفظٍ كَمَا قُرِن الجُمانُ مع الجـمانِ

تشكل الأزهار أجمل مظهر من مظاهر الربيع، ولاسيما ما كان منها أحمر اللون، وقد خص بالذكر في هذه الأبيات عن شقائق النعمان، والشقائق: "تنبت في صدر الربيع وهي طليعة الأزهار ترصع بساط المروج بلونها الياقوتي الأرجواني"[٥] والنعمان هو: " اسم الدم وشقائقه قطعة فشبهت حمرتها بحمرة الدم"[٦]. ولما كانت هذه الازهار متجاورة متلازمة، بدت وكأنها قلادة ياقوت مرتبة أحجارها بانتظام.

وإذ يشبه الشاعر شقائق النعمان بالياقوت، فليؤكد ما يضفيه عليها اللون الأحمر من جمال وبهاء، بل وندرة في الوجود . ويدخل اللون الأرجواني في هذه المقطوعة ضمن اللون الأحمر؛ لأنه يتكون عن طريق دمج اللونين الأحمر والبنفسجي[٧] . فقد شبه الشاعر الورد

---

(١) ديوان الخالديين: ٩٩.
(٢) ينظر: حياة الخالديين: ٣٠.
(٣) شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني، رشدي علي حسن: ٦٨.
(٤) ديوان الخالديين: ٩٩.
(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الوهاب: ٢٨٢ .
(٦) الأعلام، خير الدين بن محمد الحسين الزركلي: ١٠/٨.
(٧) ينظر: الألوان نظرياً وعملياً، إبراهيم الدملخي: ٦٩ .

بالخدود، عاكساً ركني التشبيه ، فلطالما شبه الشعراء حمرة الخدود بالورد. وهي محاولة جديدة منه شخصياً وإن كان عكسها مستهلكاً وهو ما أسماه جونجورا بالقوة الثانية[١] . وقد عزا الشاعر السبب في حمرة الخد إلى تناول الشاعر الخمر (الراح) وكأن صاحبها قد شرب الخمرة حتى احْمرّت خدّاه. ولأن اللون الأحمر من الألوان الحارة، فقد أعطى النص قوة حية حركية[٢].

وللون الأبيض حضور في هذا النص ، وقد أحالتنا إليه لفظة جمان؛ فالجمان: " اللؤلؤ الصغار، وقيل: حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ "[٣]، فالشاعر يسترسل في وصف هذه الأزهار، التي شبهها بالياقوت مرةٍ وبالخدود التي كستها الخمرة ثوب الارجوان؛ من حيث استدارتها وامتلاؤها وبياضها. ولما كانت للون الأبيض مزية خاصة، وهي أن الألوان كلها متضمنة فيه، إذا ما حُلل بوساطة منشور زجاجي[٤] فإن هذه الورود البيض تصبح هي المصدر لكل ألوان الورد.

وقال أبو عثمان في وصف الورد[٥] : (من السريع)

وردةُ بستـــانٍ قُحـــــابيةً	**رُتبةُ الحُسنِ بِنـــُـــــوعينِ**
ظَاهِرُها من قِشرِ ياقـــــوتةٍ	**باطِنُها مِن ذَهـــــبٍ عينِ**
قبّلتُها حُبـــــــاً لها إذا بها	**حيّاني البـــــدرُ على عَينِ**
كأنّها خدّي علـــى خـــــدّهِ	**يومَ اجتَمـــــعْنا غَدوةَ البينِ**

يصف أبو عثمان الوردة القحابية، مشيراً إلى أن لها جمالاً متفرداً؛ فهي تتكون من لونين منحاها حسناً مزدوجاً؛ فظاهرها يتكون من قشر ياقوتة، وهذا يحيلنا إلى اللون الأحمر، أمّا باطنها فيتكون من ذهب عين وهذا يحيلنا إلى اللون الذهبي ، وهكذا فإنها حين تغمض تكون حمراء بوصف اللون الأحمر يرمز إلى الحب؛ فعادة ما يهدي المحبون بعضهم بعضاً وروداً حمرا فهو لون ملفت للنظر[٦]، وعندما تتفتح يبرز اللون الذهبي الذي يمنحها الفخامة والعظمة[٧]، ومن ثمة فقد جمعت بين المعنيين.

---

(١) ينظر: مع شعراء الاندلس والمتنبي، اميلو غرسيه: ١٢٩.

(٢) ينظر: الألوان نظرياً وعملياً: ٦٩.

(٣) لسان العرب: ٤٤.

(٤) ينظر: اللون في الشعر العربي قبل الإسلام: ١٢٩.

(٥) ديوان الخالديين: ١٦٤.

(٦) ينظر: طاقة الألوان: ٢٨ .

(٧) ينظر: المصدر نفسه: ٦٠ .

قال أبو عثمان في وصف البرق والرعد[١]: (من المتقارب)

كأنّ الرُعودَ خِلالَ البـــروقِ والرّيحُ تَكثُر تَحريضـــــها

زنوجٌ إذا أخفقَتْ بينـــــها دَبادِبُها جَردَتْ بِيضَـــــها

ويبدع أبو عثمان في وصف البرق والرعد ؛ فقد شبه صوت الرعد المدوي خلال البروق، والريح عاصفة، بحركة الزنوج في حالة أخفقت دبادبها، والدبادب: "هي حكاية الصوت "[٢]؛ لأن إخفاق الدبادب إيذان بتجريد السيوف فوجه الشبه بين الرعود والزنوج هو القوة التي تجلت في اللون الأسود[٣]، وقد عُرف عن الزنوج أنهم أقوام سود اللون، وتتجلى صفاتهم الجسدية في ضخامة البنية والهيأة فضلاً عن القوة الجسدية[٤] وهذا ما عززه اللون الأسود فيهم .

ويبرز اللون الأبيض في هذا النص من خلال تشبيه لمعة البرق بالسيف؛ فلكليهما البريق نفسه، وصورة لمعان السيف من الصور المتكررة كثيراً في الشعر الجاهلي، التي كان للون الأبيض دور كبير في تشكيلها من حيث وصف السيف دوماً بأنه أبيض اللون[٥].

(١) ديوان الخالديين: ١٣٨.

(٢) لسان العرب: ١٣١٥ .

(٣) ينظر: طاقة الألوان: ٦٤ .

(٤) ينظر: صورة الآخر عند الشعراء السود في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي ، بلسم باسم شنان: ٥ .

(٥) ينظر: اللون في الشعر العربي قبل الإسلام: ١٥٢ .

الخاتمة

- شكل اللون أحد المكونات الأساسية في قصائد الخالديين؛ لارتباطه الوثيق بأحداث حياتهم الواقعية، والاجتماعية، فغدت صورهم اللونية بمثابة المرآة العاكسة لعوالمهم النفسية، واتجاهاتهم الفكرية.
- تعددت دلالات الصورة اللونية وتنوعت في النصوص الشعرية، فاختلفت دلالة اللون باختلاف حالة الشاعرين النفسية والوجدانية والانفعالية.
- استسقى الشاعران مصادرهم اللونية من بيئتهم الطبيعية وما تحتضنه من مشاهد وشخوص، لاسيما طبيعة الموصل وسحرها الآخاذ اتسمت فيها عناصر الحضارة والرقي بكل تفاصيلها، حتى جعلوا منها أداة للتعبير عن أفكارهم وأحاسيسهم.
- اعتمد الشاعران في تشكيل صورهم اللونية على استخدام الفنون البلاغية وخاصة فني التّشبيه والاستعارة، مما وهب اللون قوة التأثير وعمق في الإيحاء فغدت صورهم الشعرية أثراً وجمالاً ورسوخاً في الذهن.

ثَبْت المصادر

أولًا: الكتب

- الأدب وقيم الحياة المعاصرة، محمد زكي عشماوي، د. ط، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٠
- الإضاءة المسرحية، شكري عبد الوهاب، د. ط، الهيئة المصرية للكتب، ١٩٨٥ .
- الأعلام، خير الدين بن محمد الحسين الزركلي، د. ط ، دار العلم للملايين، د. م، ١٩٦٦.
- الألوان نظرياً وعملياً، إبراهيم الدملخي، ط١، مطبعة اوفست الكندي، حلب، ١٩٨٣ .
- التوظيف الفني للون، حمد محمد فتحي الجبوري، ط ١ ، دار غيداء، عمان، ٢٠١٥.
- ديوان ابن خفاجة، تحقيق: عبدالله سندة، ط ١ ، دار المعرفة، بيروت، لبنان ، ٢٠٠٦.
- ديوان الخالديين، جمع وتحقيق د. سامي الدهان، د. ط، دار صادر، بيروت، ١٩٩١.
- شعر الخالديين دراسة فنية، شلاش القداح، د. ط، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٩.
- شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني، رشدي علي حسن، ط١، مؤسسة الرسالة، دار عمان، بيروت، ١٩٨٨.
- الشعر والرسم، فرانكلين روجر، ترجمة: مي مظفر، ط١، دار المأمون للترجمة، بغداد، ١٩٩٠.
- الصورة اللونية في الشعر العماني الحديث، سالم الجديدي، د. ط، مؤسسة الانتشار العربي، عمان، الاردن، ٢٠١٤ .
- طاقة الألوان، مها محمد سعيد، ط١، مؤسسة سوريانا للإنتاج الإعلامي، د. م، ٢٠٠١.
- الطبيعة في الشعر الاندلسي، جودت الركابي، د. ط، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٥٩.
- الطبيعة في العصر العباسي الأول، أنور عليان أبو سويلم، د. ط، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٨٣.
- غريب القرآن، عبدالله بن مسلم بن قتيبة المروزي، تحقيق أحمد صقر، د. ط ، دار الكتب العلمية، بيروت_ لبنان، ١٩٨٧.
- قدماء ومعاصرون، سامي الدهان، د. ط ، ط: دار المعارف، مصر، ١٩٦١.
- لسان العرب، ابن منظور، د. ط، دار صادر، بيروت ، لبنان، ١٩٩٥.
- اللغة واللون، أحمد مختار عمر، ط١، عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٢.
- اللون في الشعر العربي قبل الاسلام، إبراهيم محمد علي، ط١، طرابلس لبنان، ٢٠٠١.
- اللون ودلالته الموضوعية والفنية في الشعر الأندلسي، علي سليمان جاسم، ط١، دار غيداء للنشر والتوزيع، الاردن، ٢٠٠١.

- مع شعراء الاندلس والمتنبي، اميلو غرسيه، ترجمة: الطاهر مكي، ط١، مكتبة وهبة ،القاهرة، مصر، ١٩٧٤ .
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الوهاب، د. ط، دار الكتب، القاهرة، د.ت.

ثانيًا: الرسائل والأطاريح الجامعية:

- تشكيل الصورة في النص الشعري المعاصر، حنان بو مالي، جامعة محمد خيضر، العدد ٢٣ ، ٢٠١٨ .
- الحركة ودلالاتها الفكرية والجمالية في العرض المسرحي، عبد الكريم عبود، رسالة ماجستير، كلية الفنون الجميلة، بغداد، ١٩٩١.
- حياة الخالديين وشعرهما، ازدهار عبدالرحمن، رسالة ماجستير، إشراف الأستاذ الدكتور: عبدالله فضل بريمة، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية اللغة العربية، السودان،٢٠٠١ .
- الطبيعة في الشعر المغربي القديم، عبد السميع موفق، رسالة ماجستير، اشراف الدكتور إحسان الديك، إشراف الدكتور: السعيد الراوي، جامعة الحاج خضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، ٢٠٠٩.
- اللون ودلالته في شعر البحتري، نصرة محمد شحادة، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور: حسام التميمي، جامعة الخليل، فلسطين، ٢٠١٣ .

ثالثًا: الدوريات:

- الأحجار الكريمة ودلالتها في الشعر الفارسي، ثائر فضل عيسى، مجلة آداب ذي قار، العدد ٣٢ ،٢٠١١ .
- جماليات اللون في شعر زهير بن أبي سلمى، موسى ربابعة، مجلة جرش للبحوث والدراسات، الاردن، المجلد الثاني، العدد ٢ ،١٩٩٨ .
- الحمام في الشعر العربي، تحسين محمد الصلاح، المجلة الثقافية، الجامعة الاردنية، العدد ٤٢، ١٩٩٧.

رابعًا: المواقع الألكترونية:

- شعر الفلك وإلهام السماء والكواكب والابراج والنجوم في القصائد العربية، سناء القويطي:Aljazeera.net.nes